المبحث الخامس

اعتذار المستهزئين بالنبي صلى الله عليه وسلم

لقد جاء اعتذار المستهزئين بالنبي صلى الله عليه وسلم في سورة التوبة، التي تعد أكثر سور القرآن الكريم تسمية حسب ما تناهى إلينا من كلام الصحابة والتابعين وتابعيهم وأساطين علماء التفسير وعلوم القرآن، ومما جاء في ذلك البحوث، الفاضحة، المبعثرة، المثيرة، الحافرة، المقشقشة[1] وغيرها، وعلى وجه العموم فإن معظم هذه الأسماء تدل على فضح أمر المنافقين وما انطوت عليه نفوسهم من الخسة والنذالة، فما زالت آيات سورة التوبة تعدد وتفضح ومنهم ومنهم ومنهم، حتى حفرت الآيات عن قلوبهم، ونقرت عما في أفئدتهم، وبيّنت حقيقة استهزائهم بالدين، وبثهم روح الفشل بين المؤمنين، وتثبيطهم عن الجهاد، قال تعالى: ﴿ يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ٦٤﴾[التوبة:64]، وهذا الحذر طبيعي لما في قلوبهم من الشك والارتياب، وحذرهم من تنزيل السورة ليس من هذا الاستهزاء، بل من خوف عاقبته، فلما أُنزلت السورة وظهر أمرهم بادروا بالوجه الآخر من النفاق الذي يظهر به المنافقون في الناس، إذا ضبطهم القرآن متلبسين بجريمة من جرائمهم المنكرة، أو لامهم لائم على ما انكشف من مستور تدبيرهم السيئ، وما جرى على ألسنتهم من سخرية برسول الله وبالمؤمنين بالله، قالوا معتذرين:

﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ ٦٥﴾[التوبة:65]أي لم نكن جادّين فيما كنا فيه، وإنما هو لعب وعبث، ومفاكهة! وهكذا المنافق لا يجد ما يستر به نفاقه إلا الاعتذار الكاذب، فهو كذب يستر كذبا، ونفاق يدارى نفاقا، حينها وبّخهم سبحانه على هذه الجرأة في الاستهزاء

---

[1] البحوث؛ لأنها بحثت عن سرائر المنافقين، قاله المقداد بن الأسود، الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين قاله ابن عباس، المبعثرة؛ لأنها بعثرت أخبارهم وكشفت عن سرائرهم، قاله الحارث بن يزيد وابن إسحاق، المثيرة، لأنها أثارت مخازي المنافقين ومثالبهم، قاله قتادة، الحافرة، لأنها حفرت عن قلوب المنافقين، قاله الزجاج، المقشقشة؛ تقشقش من النفاق أي تبرئ منه. ينظر:درج الدرر في تفسير الآي والسور(2/ 857)، الكشاف(2/ 241)،زاد المسير(2/ 230).

بالدين ﴿ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥﴾[التوبة:65]ونهاهم عن هذا الاعتذار: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ٦٦﴾[التوبة:66]، يقول أبو السعود:" قل غير ملتفت إلى اعتذارهم ناعياً عليهم جنايتهم منزِّلاً لهم منزلة المعترف بوقوع الاستهزاء موبخاً لهم على أخطائهم "[1]، فاعتذارهم إقرارٌ بذنبهم وهو مردودٌ عليهم، لأن الاعتذار الصادق المقبول محو وإزالة أثر الذنب ، لا تغطيته وتغليفه بالكذب والاحتيال، ولذلك أمر الله نبيه بالإعراض عن اعتذارهم الكاذب، وأوصد أمامهم الباب، ثم فتح أمامهم باب التوبة والاعتذار الصادق لله عز وجل، فما أعظم رحمته سبحانه، فقد فتح باب التوبة أمامهم، بعد أن كشف ما في نفوسهم، فالطائفة التي ستتوب توبة صادقة سيغفر لهم الله، أما الذين بقوا على نفاقهم وإجرامهم، فسوف يعذبهم الحق سبحانه.[2]

شذرات في اعتذار المستهزئين بالنبي صلى الله عليه وسلم:

1. اعتذار المنافقين يدل على فساد قلوبهم فالدين ليس مجالاً للخوض واللعب؛ لأن أصل الدين مبني على تعظيم الله وتعظيم دينه ورسله واللعب والخوض بشيء من ذلك مناف لهذا الأصل ومناقض له أشد المناقضة.
2. استخدامهم للفظ(الخوض) في الاعتذار ينبأ عن كذبهم وعبثهم بالدين، فهو اعتذار مردودٌ من أصله، لأن الخوض مأخوذ من الخوض في الماء، والخوض

---

[1] إرشاد العقل السليم (4/ 80).

[2] ينظر: نظم الدرر (8/ 517)، تفسير المنار (10/ 455)، في ظلال القرآن (3/ 1672)، روح المعاني (5/ 320)،الدر المنثور (4/427).

من الكلام ما فيه الكذب، وجاء استعماله في القرآن بمعنى الباطل[1]، قال تعالى: ﴿ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾[الأنعام:91]، أي: دعهم يا محمد يخوضون في باطلهم وكفرهم بالله وآياته.

3. تقريع الله لهم وتوبيخهم ﴿ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥﴾، ثم نهيهم عن الاعتذار﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ ٦٦﴾ ارتقاء في توبيخهم، يقول ابن عاشور:" فجملة لا تعتذروا من جملة القول الذي أمر الرسول أن يقوله، وهي ارتقاء في توبيخهم، فهي متضمنة توكيدا لمضمون جملة أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن، مع زيادة ارتقاء في التوبيخ وارتقاء في مثالبهم بأنهم تلبسوا بما هو أشد وهو الكفر".[2]

4. اعتذار المنافقين اعترافاً لهم بأفحش ذنوبهم، يقول محمد رضا:" اعتذاركم إقرار بذنبكم، وإنما الاعتذار الإدلاء بالعذر، وهو بالضم ما يراد به محو الذنب، وترك المؤاخذة عليه، وأنتم قد جئتم بما يثبت الذنب ويقتضي العقاب، أو هو كما قيل: (عذر أقبح من الذنب)".[3]

5. أمر الله نبيه أن يقطع على المنافقين اعتذارهم، ويجيبهم إجابة الموقن بفساد اعتذارهم﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ ٦٦﴾،لأن الاستهزاء بالدين كفر، يقول الرازي في ذلك:"العقل يقتضي أن الإقدام على الكفر لأجل اللعب غير جائز، فثبت أن قولهم ما كان عذراً حقيقياً في الإقدام على ذلك الاستهزاء، فلما لم يكن ذلك عذراً في نفسه نهاهم الله عن أن يعتذروا به لأن المنع عن الكلام الباطل

---

[1] ينظر: المخصص (1/ 295)، أساس البلاغة (1/ 270).

[2] التحرير والتنوير (10/ 251).

[3] تفسير المنار (10/ 457).

واجب"،[1]وهذا يستلزم الشدة في قطع ورفض اعتذار من يهزأ بالدين وأهله، يقول ابن عثيمين في هذا:" استعمال الغلظة في محلها، وإلا فالأصل أن من جاء يعتذر يرحم، لكنه هنا ليس أهلا للرحمة".[2]

6. الهزل واللعب بما يمس الدين لا يقيله الاعتذار إلى الناس، بل يستلزم التوبة والاعتذار الصادق إلى الله لاتصاله بحقه سبحانه، لذلك جاء التعبير عن استهزائهم بالكفر.

7. ساب الرسول أو المستهزأ به كافر، فإن تاب قبلنا توبته لكننا لا نرفع عنه القتل، بل نقتله أخذاً بحق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا قتلناه بعد توبته النصوح الصادقة صلينا عليه كسائر المسلمين الذين يتوبون من الكفر أو من المعاصي، قال شيخ الإسلام ابن تيمية:" أن من سب النبي صلى الله عليه وسلم من مسلم أو كافر فإنه يجب قتله، هذا مذهب عليه عامة أهل العلم قال ابن المنذر: "أجمع عوام أهل العلم على أن حد من سب النبي صلى الله عليه وسلم القتل"، وقال أيضاً:" يقتل من سبه وإن تاب وعاد إلى الإسلام".[3]

---

[1] مفاتيح الغيب (2253/1).

[2] القول المفيد على كتاب التوحيد (2/ 272)

[3] الصارم المسلول على شاتم الرسول (1/3،118). وقال ابن عثيمين:" العلماء اختلفوا فيمن سب الله أو رسوله أو كتابه: هل تقبل توبته؟ على قولين:

القول الأول: أنها لا تقبل، وهو المشهور عند الحنابلة، بل يقتل كافرا، ولا يصلى عليه، ولا يدعى له بالرحمة، ويدفن في محل بعيد عن قبور المسلمين، ولو قال: إنه تاب أو إنه أخطأ؛ لأنهم يقولون: إن هذه الردة أمرها عظيم، وكبير، لا تنفع فيها التوبة.

وقال بعض أهل العلم: إنها تقبل؛ إذا علمنا صدق توبته إلى الله، وأقر على نفسه بالخطأ، ووصف الله تعالى بما يستحق من صفات التعظيم، وذلك لعموم الأدلة الدالة على قبول التوبة؛ كقوله تعالى: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً) [الزمر: من الآية53] ، ومن الكفار من يسبون الله، ومع

8. جاء فتح باب التوبة والاعتذار لله سبحانه وتعالى، متناسباً مع عظم جرم المنافقين، فقد جاءت البشارة لهم بفتح باب التوبة مخلوطة ببقية النذارة، فأنبأهم سبحانه أن طائفة منهم قد يعفى عنها بالتوبة الصادقة وإخلاص الإيمان، وطائفة أخرى تصر على النفاق والإجرام وتستمر عليه، فيعذبها الحق سبحانه،﴿ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ٦٦﴾[التوبة:66] والآيات الواردة بعد هذه الآية تدل على ذلك: ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٦٧﴾[التوبة:67]

9. عفو الله منوط بالتوبة، والتوبة مقبولة من كل ذنب و إن كان عظيما، فالتوبة تجبُّ ما قبلها.

10. أن الاعتذار الكاذب صفة سائدة في المنافقين، يتوارون به خلف نفاقهم، فقد ظهر ذلك منهم زمن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا زلنا نسمع ونرى هذا في زماننا، فبين فينة وأخرى يظهر من يستهزأ بالإسلام ورسوله، ثم ما يلبث أن يمسح جرمه بالاعتذار الباهت الكاذب، نسأل الله العافية والسلامة.

11. على الرغم من تعدد أسماء السورة التي توحي بفضح المنافقين و هتك أسرارهم، إلا أن التوبة تعتبر من أشهر الأسماء التي تترجم للسورة في كلام السلف من أئمة الحديث كالبخاري والترمذي: فقد جاء من حديث زيد بن ثابت:(فتتبعت القرآن

ذلك تقبل توبتهم. وهذا هو الصحيح، إلا أن سابَّ الرسول صلى الله عليه وسلم تقبل توبته ويجب قتله، بخلاف من سب الله؛ فإنها تقبل توبته ولا يقتل، لا لأن حق الله دون حق الرسول صلى الله عليه وسلم، بل لأن الله أخبرنا بعفوه عن حقه إذا تاب العبد إليه؛ بأنه يغفر الذنوب جميعا، أما ساب الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه يتعلق به أمران:

الأول: أمر شرعي لكونه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن هذا الوجه تقبل توبته إذا تاب.

الثاني: أمر شخصي؛ لكونه من المرسلين، ومن هذا الوجه يجب قتله لحقه صلى الله عليه وسلم، ويقتل بعد توبته على أنه مسلم، فإذا قتل؛ غسلناه، وكفناه، وصلينا عليه، ودفناه مع المسلمين. وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية. القول المفيد على كتاب التوحيد (2/ 268).

أجمعه من الرقاع والأكتاف، والعسب وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع أحد غيره، ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم ١٢٨﴾[التوبة:128] إلى آخرهما)[1]، وفي ذلك دعوة إلى التوبة مهما بلغ الإنسان من العُتي والعصيان، وإشارة إلى سبيل النجاة، ومما يحسن الإشارة إليه أن سورة التوبة آخر سورة نزلت في القرآن الكريم[2]، ولعل الحكمة من ذلك ليكون ختام الوحي بفتح باب التوبة.

---

[1] الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه (4679)، كتاب تفسير لقرآن، باب (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم) (6/ 71).

[2]